أَلْمُتَغَيِّرُ الإِجْتِماعِيُّ فِي الخِطابِ القُرْآنِيِّ

د. إحسان الأمين
رئيس مجلس الأمناء-بيت الحكمة

فحوى البحث

بحث علمي متوازن، وقف على حقيقةٍ مهمة تذهب الى أن القرآن الكريم قد استهدف في خطابه المعجز، الانسانَ قبل كل شيء وكان لا بد من أن يفهموه ليهتدوا به، بالرغم من رصانته وبنائه المحكم وتحاشي المفردة الحوشية أو المرذولة، أو الاسلوب العُلوي المجرد الذي لا يقترب من حاجات الناس أو يعالج أدواءهم الاجتماعية الراسخة في مجتمعهم الجاهلي، البدوي منه والمدني. لذلك فقد نحا السيد الباحث نحو دراسة واقع (الناس) الذين خاطبهم القرآن الكريم من خلال دراسة أسباب النزول وطبيعة المعالجة القرآنية للانسان، فرداً ومجتمعا، والذي اقتضى تطوير الأساليب وتنويعها بحسب مقتضيات الاحوال الاجتماعية، ومناسبة اوضاعها المتغيرة.

تطرق البحث الى مسألة الثابت والمتغير في الخطاب القرآني ومظاهر هذا التغيّر في المكي والمدني. وأثبت أن تعلق الآيات بوقائع معيّنة لايعني محدودية المعاني. وختم البحث بخاتمة وخلاصة..

مقدمة:

يعاني الخطاب الديني المعاصر من أزمة حقيقية حتى عدَّه البعض سبباً من أسباب ظهور التطرف الديني، وذلك بوصفه خطاباً يجمد على الموروث من دون لحاظ الظروف المستجدة وانجازاتها العلمية والمتغيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية في عالمنا الحاضر، كما إنه قام باعمام الأحكام وإطلاقها على المجتمعات المختلفة دون لحاظ نزول الأحكام وشروطها المقيّدة لها.

وانسحب شكل الخطاب وموضوعاته على الثقافة الدينية ولغة الوعظ والإرشاد وامتد ليشمل مناهج التعليم والتربية الدينية، والتي ظهرت فيها إشكاليات متوارثة سواء في لغة الخطاب وأشكال المقاربة مع النص، والعسر في المواد المتناولة في الكتب الدينية حجماً ومضموناً، أو في عدم تناسب بعض هذه المواد مع متطلبات العصر وجمودها على الموضوعات القديمة وعدم معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصر.

ولما كان القرآن الكريم، هو المرجع الأساس في الفكر الإسلامي وكان القرآن معجزة الإسلام الخالدة بما يحمل من لغة وتعبير ومضامين عالية، كان لابد من الرجوع إليه لاستطلاع أساليب دعوته وأدوات خطابه، وكيف قارب القرآن أوضاع الناس على اختلاف ميولهم وتوجهاتهم؟. ومن ثم كيف خاطب القرآن المجتمعات التي نزل فيها وهي متباينة في أوضاعها الفكرية والاجتماعية؟. مستفيدين من تلك التجربة البكر في تطوير الخطاب الديني المعاصر واتساقه مع المجتمعات المختلفة، لغةً ومضموناً.

لقد استهدف الخطاب القرآني: الانسان، قبل أي شيء أخر فهو المحور الذي دارت حوله مباحثه، هو المخاطَبُ بالقرآن، والمعني بآياته، وهو المرجو بغاياته: وهي الارتقاء به في طريق التكامل نحو الله، مصدر الجمال والكمال المطلق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[سورة الانشقاق: ٦].

ولذا كان من الطبيعي أن تتوجه اولى آيات القرآن النازلات نحو الانسان، بالعناية وبالخطاب: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى

خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[سورة العلق: ١-٥].

واذا كان الخطاب متوجهاً الى الإنسان، والناس ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة ال عمران: ١٣٨]، فإنَّ حالات هذا الانسان وأولئك النّاس، لها تأثير في نوع الخطاب ودلالاته، لأنَّه نزل إليهم ومن أجلهم.

وكانت هناك مناسبة بين الانسان والنّاس، والوحي الذي نزل اليهم، لأنَّ الوحي جاء متحركاً لمعالجة الاوضاع الاجتماعية ولم يكن خطاباً عُلوياً مُجّرداً من دون أن يقترب من حاجات الناس ويعالج أدواءهم ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة يونس: ٥٧]. فكانت دراسة واقع الناس المخاطَبين بالدعوة القرآنية ومعرفة شأن النزول ومناسباته وطبيعة المقاربة والمعالجة القرآنية للإنسان، فرداً ومجتمعاً، ذات أهمية كبيرة تساهم بشكل أو بآخر في تطور الخطاب الديني المعاصر، ومقاربته للمجتمعات التي يتوجه لها، ومناسبته لأوضاعها المتغيّرة.

الخطاب القرآني:

الخطاب القرآني لغـةً: الكلام، ففي التنزيل العزيز: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾[سورة ص: ٢٣].

والخطاب أيضاً: الرسالة، ورد في القران الكريم: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠] وأريد به ما ينفصل الأمر من الخطاب[1].

وقال المفسّرون: هو الكلام البيّن الذي يفهمه من يُخاطَب به، وقيل: الفصل في القضاء[2].

وما نريده هنا يختلف عن النص، فالنص قائم بنفسه، والخطاب يتقوّم بالنص، والمخاطِب، والمخاطَب به، وأيضاً بمناسبات النص وأسباب النزول، وبيئة النص التي أنزل بها، والرسالة التي يحملها.

(١) مصطفى ابراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، ط دار الدعوة، ص٢٤٢.

(٢) الزمشخري واختاره ابن عطية، انظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م، ص١٠٤٦ في تفسيره للآية.

وكل ذلك يساهم في إيصال الخطاب إلى المخاطَب به بأبلغ رسالة، فكان القران نصاً إلهياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكان تفسير القران –وتأويله أيضاً –خطاباً قرآنياً لا يدرك بمجرد فهم اللغة وأدواتها، بل لابد فيه من النظر إلى المتكلِّم بالقرآن والمُنْزَل عليه، والمخاطَب به، فلا يكفي مجرد مراعاة اللفظ وما يجوز أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلِّم، وسياق الكلام[٣].

لذلك فإننا إذا أردنا النص فهو ثابت لا يتغير، لم تمسّه يد التبديل ولا التحريف، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[سورة الحجر: ٩].

أما إذا أردنا الخطاب القرآني، من حيث مدلولاته ومناسباته، وأسباب نزوله، والمعاني المرادة فيه، والغايات المستوحاة منه، فقد تختلف من آية لأخرى بحسب الوقائع وسياق الكلام، وبالنظر إلى من خُوطب بتلك الآية، والموضوع الذي نزلت به، والحقائق التي تحملها والرسالة التي تهدف إليها.

وقد فصل الشاطبي القول في اختلاف الخطاب القرآني تبعاً لتغيّر مقتضيات الأصول حال الخطاب، فقال في باب: ضرورة معرفة أسباب النزول: "إن علم المعاني والبيان الذي يعرف به اعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، انما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب، من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطَبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام، لفظه واحد، ويدخله معانٍ أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الاباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا يدل على المعنى المراد إلاّ الامور الخارجية وعمدتها مقتضيات الأحوال..."[٤].

وهذا لا ينافي أن القران: ﴿كِتَٰبٌ

(٣) انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القران، ط٣، ابن كثير، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ج٢، ص ١٢٠٣.

(٤) الشاطبي، ابو اسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، ط المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ج٣، ص ٢١٤-٢١٥.

﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فصلت: ٣] فهو أيضاً ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٨] ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] فلابد أن يُعتبر في خطابه المخاطَبون به، على تفاوت منهم في الفهم والاستيعاب، ولذلك قيدت بعض آياته: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فصلت: ٣].

كما إنَّ من بلاغة الخطاب وقوته أن يلاحظ مستوى إدراك المخاطبين وفهمهم، ولغة الحوار والتخاطب فيما بينهم، ليكون أكثر أثراً فيه، وهذا ما أكده القران بنفسه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

واللسان هنا وإن كان يعبّر به عن اللغة ولكن أيضاً يراد به: الكلام، وربما يتسع الى التعبير اللغوي، بما يحمل من دلالات: الخبر والرسالة والحجة والذكر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٧].

وكنموذج على تغيّر الخطاب بلحاظ المخاطَب: قال السيوطي: صنّف ابن الجوزي الخطاب القرآني الى خمسة عشر وجهاً وقال غيره: على أكثر من ثلاثين وجهاً، ثم ذكر أربعة وثلاثين وجهاً من أنواع الخطاب في القرآن: خطاب العام والمراد به العموم كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وخطاب الخاص والمراد به الخصوص كقوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وخطاب الخاص والمراد به العموم كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ افتتح الخطاب بالنبي والمراد سائر من يملك الطلاق... الى آخر ما ذكره أصناف الخطاب و ذكر ايضاً في وجوه الخطاب: خطاب الذم، خطاب الكرامة، خطاب الاهانة، خطاب التهكم... الخ(٥). وكل ذلك يدلّ على أن الخطاب يوجه النص باتجاه المخاطَب به، وكذلك يتأثر بمناسبة الخطَاب.

الثابت والمتغير في الخطاب القرآني:

النص القرآني ثابت لا يتغير ولا

(٥) السيوطي، المصدر السابق، ج٢، ص ٧٤٤-٧٤٦.

يتبدل، محفوظ بحفظ الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩]، منذ صدر الإسلام وتلقي الجيل الأول من المسلمين القرآن من لدنّ رسول الله ﷺ حتى يومنا الحاضر، تلقى المسلمون القرآن بالحفظ والرعاية وتعاهدوا على قراءة آياته وتدبّر معانيه، حتى عدَّ متواتراً بالصورة التي نجدها اليوم في المصحف الشريف.

ولم يقل بنقص القرآن أو تغيّر آياته إلا شواذ الناس ممن لا يعتنى بقولهم ولم يثبت ما قالوه بدليل ولا برهان، لأنه خلاف الإجماع المتوارث على تمامية القرآن وسلامته من أي نقص أو زيادة أو تحريف أو تبديل.

كما إن الإسلام بعقيدته وقيمه ومفاهيمه الكلية عن الحياة وأحكامه المثبتة في القرآن، أيضاً ثابتة بلا تغيير: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: ٤١ - ٤٢].

فالقرآن ثبت أسس الاعتقاد في الإسلام بآيات كثيرة، واضحة بيّنة، منها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٣٦].

كما جاء القرآن بقيم حياتية وأخلاقية أساسية تشكل روح القرآن ونهجه القويم، حملتها آيات القرآن المبثوثة في سائر سوره، وهي تحدد هوية المسلم وبوصلة مواقفه في قضايا الحق والباطل، والعدل والظلم، والصدق والكذب، والفضيلة والرذيلة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: ٢١].

وهناك أحكام تشريعية، وهي الأحكام التي تنظم العلاقات البشرية منها ما تكفّل بتنظيم العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، وهي أحكام العبادات مثل الصلاة والصوم والحج، فلا تغيير فيها ولا تبديل، ومنها أحكام أخرى تتعلق بنظام المجتمع، وعلاقاته بعضه ببعض.

وقد جاءت بعض أحكامه في القرآن مفصلة تارة كأحكام الإرث والوصية، ومجمّلة تارة أخرى، جاءت السنّة الشريفة بتفصيلها ككيفيات الصلاة وتفاصيل الحج والصيام والزكاة.

وليس في القرآن الكريم اختلاف بين آياته، وإن اختلف حكم في موضع عن حكم في موضع آخر فلتغيّر الموضوع الذي يستوجب تغيير حكمه، وهذا عادةً يكون في الأمور الاجتماعية.

نعم يَرِدُ التغيير في الفقه، بحسب الاجتهاد وفي مناطق الفراغ التشريعي، مما تركها الشارع المقدس للناس لينظموا حياتهم فيها بمقتضيات زمانهم وفي إطار الأسس العامة للتشريع الإسلامي وأهدافه العامة (٦).

فإذا كان القرآن ثابتاً بألفاظه ومعانيه، فما المراد بالمتغيّر فيه؟. المراد بالتغيير هنا هو التغّير في أساليب الخطاب من سورة لأخرى، ومن آية لأخرى تبعاً لتغيّر البيئة الاجتماعية والظروف الموضوعية، التي نزل فيها القرآن.

فالقرآن أنزل ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [سورة ص: ٢٩]، لذا جاء متابعاً لأوضاع الناس على اختلاف مللهم ونحلهم، ليصحح العقائد ويقوّم الرؤى بما يقرب الناس إلى الله تعالى وعبادته وحده دون غيره، وبما يصلح الأوضاع المنحرفة للمجتمع، ويغيّر العادات والتقاليد الجاهلية إلى المساحات الإنسانية الرحبة والفضاءات الأخلاقية السامية التي

(٦) انظر للمزيد: لجنة التأليف، الثابت والمتغيّر في التشريع الإسلامي، مؤسسة البلاغ، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٩١.

جاءت بها الشريعة الإسلامية، كما قال رسول الله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(٧).

ولأن القرآن كتاب هداية ورسالة إصلاح، ولابدّ لمن يريد الإصلاح أن ينتقد الأوضاع القائمة ويقيّم ويقوم أوضاع الناس المختلفة، فإن خطاب القرآن يأتي متابعاً ومقارباً للبيئة التي نزل فيها وللناس المخاطَبين به، فكان متغيراً من حال إلى حال، بحسب الأوضاع الفكرية والاجتماعية ليكون خطابه في مكة مختلفاً عنه في المدينة، وخطابه للمشركين مختلفاً عن خطابه لأصحاب الكتاب، لغةً وأدواتَ خطابٍ ومقارباتٍ فكرية ووسائلَ تعبيرية... وان كانت الفكرة واحدة وهي التوحيد والغاية أيضاً واحدة وهي التعبد لله تعالى الواحد الأحد.

فالتغيّر في أسلوب الخطاب القرآني ومضامينه، بتغيّر البيئة الاجتماعية والناس المخاطبين به، لا يعني ابداً تغيّر الأهداف والغايات التي يتبعها القرآن، فإن قارئ القرآن من أوله الى آخره، سواء قرأ القران بحسب تنزيله أو بحسب جمعه في القرآن المحفوظ بين الدفتين، لا يجد تفاوتاً ولا تناقضاً بين آياته، ولا اختلافاً في غاياته لأنه صدر عن مصدر واحد، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢]. وإنما الاختلاف في لغة الخطاب وأدواته، وإلا فالقرآن "ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله"(٨)، ومن هذا المنطق اعتبر تفسير القرآن بالقرآن، لاتحاد غاياته وتكامل معانيه، من أصح الطرق في تفسيره، فما أُجمل في مكان فإنه قد بُسِطَ في موضع آخر(٩).

من مظاهر التغيير في الخطاب القرآني:

يمكن ملاحظة التغير في الخطاب القرآني ومعالجاته للواقع الاجتماعي من

(٧) الليثي، يحيى بن يحيى، موطأ الامام مالك، اعداد احمد راتب عرموش، ط١٠، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م، ص٦٩١.

(٨) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣.

(٩) الدمشقي، ابن كثير، تفسير القران العظيم، ط دار الاندلس، بيروت، ج١، ص٧.

خلال ظاهرتين أساسيتين هما:

الأولى: تنزيل القرآن منجماً وتدريجياً:

قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [سورة القدر: ١].

والآيتان الكريمتان وغيرها من الآيات الكريمة، وكذلك الروايات تشير إلى أن القرآن نزل جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، و إن اختلفت الآراء في كيفية نزوله، ومن ثم كانت آياته تنزل متفرقة إلى الرسول الكريم في مدة استمرت نحو ثلاثة وعشرين عاماً(١٠).

فقد أخرج الحاكم والبيهقي أيضاً، والنسائي من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٣] ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦].

وما نريده هنا أن هذا التنزيل التدريجي إنما كان بحسب حاجة الرسالة والمتغيرات في بيئة النزول والإشكاليات المطروحة في ساحة المخاطبين، فكان الوحي ينزل حيناً مبتدئاً بالوعظ والهداية، وأخرى مستجيباً لمتطلبات الموقف الذي يواجهه الرسول وتتطلبه مهام الرسالة، فيكون التغيّر في الخطاب تبعاً لتغير الواقع وموضوعاته.

فقد أخرج ابن أبي حاتم الرواية السابقة وجاء في آخرها: ((فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً))(١١).

أي أن القرآن كان ينزل متفرقاً بحسب الحوادث الواقعة على الأرض: يبيّن للناس، مؤمنين وغيرهم، الموقف الإلهي منها، وينير للرسول الكريم صلى الله عليه وآله ولمن تبعه الطريق الذي عليهم اتباعه.

قال ابن شامة: "إنّ الحكمة الإلهية

(١٠) انظر اختلاف الآراء في كيفية انزال الوحي، السيوطي، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٨ فما بعدها.

(١١) السيوطي، المصدر السابق، ص١٣٠.

اقتضت وصوله إليهم مُنَجَّماً[١٢] بحسب الوقائع فإن قيل: ما السرّ في نزوله مُنَجَّماً؟. وهلاّ نزل كسائر الكتب جملةً؟. قلنا: هذا سؤال قد تولّى الله جوابه، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾[سورة الفرقان: ٣٢] يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أنزلناه كذلك مُفرّقاً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ ﴾ أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشدّ عناية بالمُرْسَلِ إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقائه جبريل"[١٣].

ونقل السيوطي عن غيره: إنما لم ينزل جملة واحدة لأنّ منه الناسخ والمنسوخ، ولا يتأتى ذلك إلاّ فيما أُنزلَ مُفرّقاً، ومنه ما هو جواب لسؤال، وما هو إنكار على قول قيل أو فعل فُعِل، وقال: "وقد تقدم ذلك في قول ابن عباس: ونزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم"[١٤].

وقول أبن عباس، هو بيت القصيد، وهو الوحي الكريم، كان ينزل بما يناسب الحالة الفكرية والاجتماعية التي يعيشها الناس بما يصلح حالهم ويقربهم للإسلام.

وقد يراد من التدرّج في التنزيل مراعاة وضع الناس واليسر بهم في تكليفهم، إذ يتم تهيئتهم لقبول الأحكام بتفاصيلها، بتقوية عقيدتهم وترسيخ إيمانهم بالله تعالى، مما يخلق فيهم قوة الوازع والدافع للالتزام بالأمر الإلهي، حتى إذا استسلموا لأمر الله ونبيه، نزلت عليهم الأحكام التي تحرّم ما حرّم عليهم وتوجب ما وجب عليهم، فإن نزول القرآن مفرّقاً وبالتدريج أدعى الى قبوله لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من

(١٢) نجّمَ الشيء: قسّطه اقساطاً، المعجم الوسيط: مادة النجم. والمراد ان القران نزل منجماً، اي نزل مفرقاً ولم ينزل الى الناس دفعة واحدة.

(١٣) السيوطي، المصدر السابق، ص١٣٢.

(١٤) السيوطي، المصدر نفسه، ص١٣٤.

قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي، فقد روى البخاري عن عائشة، قالت: إنما نزل أوّل ما نزل فيه سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: (لا تزنوا) لقالوا: لا نَدَعُ الزنا أبداً[15].

والرواية أعلاه تبين لنا المنهج في تبليغ الرسالة، وذلك بأن التكليف بالفروع، يترتب على رسوخ الاعتقاد والإيمان بالله تعالى وبرسالته واليوم الآخر، يبتدأ أولاً مع الناس بالتربية الإيمانية ومن ثم آيات الأحكام، وقد ورد في القرآن الحثّ على العمل الصالح المترتب على الإيمان في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٧].

وكان التدرّج في تشريع الأحكام ونزولها في القرآن شيئاً فشيئاً سُنة إلهية، فقد ذُكر أنه في ليلة الأسراء قبل الهجرة بسنة فرضت الصلاة، وفي السنة الأولى من الهجرة شرع الآذان والقتال –دفاعاً –كما شرعت أحكام من النكاح كالصداق، وفي السنة الثانية شرّع الصوم وصلاة العيدين ونحر الأضاحي والزكاة، وحولت فيها القبلة وأحلت الغنائم للمجاهدين، وفي السنة الثالثة كان تشريع المواريث وأحكام الطلاق وشرع قصر الصلاة في السفر وفي الخوف، وفي السنة الرابعة شرعت عقوبة الزنا وأنزل الله أحكام اليتيم والقذف وفرض الحج[16].

والمستخلص من ذلك أن القران نزل مفرقاً، آيات، أو آية، أو بعض آية، بما يتوافق مع حاجة الناس وأوضاعهم وما يبرز على الساحة من أسئلة وإشكالات كان يجيب عنها الوحي الكريم وينزل القرآن ليرفعها، وكان في التدرج حكمة

(١٥) البخاري، فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم ٤٧٠٧.

(١٦) الأشقر، د. عمر سليمان، المدخل الى الشريعة والفقه، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م، دار النفائس، عمان، ص١١٥م.

الهية بالغة لتعليم المسلمين مبادئ الدين الحنيف بما يناسب طاقتهم واستيعابهم ويأخذ بأيديهم نحو الهداية والصلاح باليسر وعدم التكليف بما لا يطاق.

فكان التنزيل المتدرج والتنوع في أساليبه وموضوعاته أحد مظاهر التغيير في الخطاب القرآني، بلحاظ أوضاع المخاطبين به ومراعاة حالهم، مع الحفاظ على المبادئ التي بني عليها الدين والقيم التي جاء من أجل إحيائها.

والتنجيم في نزول القرآن يبيّن لنا المنهج التربوي القيّم للإسلام كما يبيّن في نفس الوقت الحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي تنص بأعبائها.

فان الوحي الذي نزل خلال ثلاثة وعشرين عاماً سيّر النبي وأصحابه خطوة خطوة نحو الهدف وهو يحوطهم في كل لحظة بالعناية الالهية المناسبة، إذ كان الوحي يتنزل بالدرس الضروري في المثابرة والصبر والإقدام والإخلاص، لأولئك الأبطال الحاملين للواء الإسلام، وما كان لديه أن يجد طريقه الى قلوبهم لو لم يكن نزوله تبعاً لأمثلة الحياة نفسها والواقع المحيط بهم[١٧].

ويستفاد أيضاً من حكمة نزول القرآن متفرقاً، المنهج في تعليمه أيضاً، فلا يُحَمَّلُ مُتَعلِّمه والطالب لعلومه، الآيات جملة، أو كثرة، بل يعلّم شيئاً فشيئاً، تدريجياً، وبحسب قدرة الطالب وقوة استيعابه، وهو ما يستفاد من الروايات التي تعرضت لذلك، من أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة: خمس آيات وعشراً، وأكثر وأقلّ، وأحياناً نزول آية واحدة، أو آيتين، أو ثلاثة...

وقد صحَّ نزول العشر آيات في قصة الأفك جملة.

وصحَّ نزول عشر آيات من أول (المؤمنون) جملة.

وصحَّ نزول غير أولي الضرر (النساء: ٩٥) وحدها وهي بعض آية.

وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ...﴾ [سورة التوبة: ٢٨] الى آخر الآية، نزلت بعد نزول أول آية... وذلك

(١٧) بن بني، مالك، الظاهرة القرانية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص ١٨٠-١٨١.

بعض آية.

وقد وردت روايات تدعو إلى تعليم القرآن، خمس آيات، خمس آيات، على أساس نزولها كذلك، منها ما أخرجه ابن عساكر من طريق أبي نضرة، قال: كان أبو سعيد الخدري يعلّمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي، ويخبر أنّ جبريل نزل بالقرآن خمس آيات، خمس آيات[18].

وروى الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبيﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً[19].

وهو نهج لم تسر عليه الكثير من كتب التربية الإسلامية التي عمدت إلى تكديس الآيات على الطالب، مع اختلاف هذه الآيات في شأن النزول ومناسباتها، مما يجعل أمر تعلّمها على الناشئة صعباً ويثقل كاهلهم.

والمتحصل من ذلك كله أن القرآن الكريم تدرّج في نزول آياته، مراعاةً لحال الناس الذين نزل عليهم وقدرتهم على الالتزام بأحكامه، ولغرض إعدادهم والتيسير عليهم من جهة، ومن جهة أخرى نزل متفرقاً بحسب الأحداث المعاصرة لنزوله والوقائع الجارية في مجتمع نزوله، فهو كالطبيب الذي يعالج مريضه بالدواء الذي يناسبه ويتدرج معه في العلاج من حال الى حال، وبالتالي فإن المنهج القرآني يدعونا الى التدرّج والتيسير وملاحظة حال الناس المخاطبين واستعدادهم لقبول التكاليف، فلا يحملونها جملة ومرة واحدة.

الثانية: التغير في الخطاب المكي والمدني:

(18) السيوطي، المصدر السابق، ص، ١٣٧-١٣٨.

(19) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، ط٤ دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ، ج١، ص٦٠.

ابتدأ نزول القرآن الكريم على الرسول الكريم ﷺ بمكة، ثم استمر نزول الوحي بعد هجرة الرسول حتى وفاته بالمدينة المنورة، فكان منه المكي والمدني.

فالمكي يراد به ما نزل على الرسول الكريم ﷺ قبل هجرته من المدينة.

والمدني: ما نزل على الرسول الكريم ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

هذا التعريف عام وهو أدقّ من تعاريف أخرى فسرت المكي بما نزل بمكة، وإن كان بعد الهجرة، والمدني ما نزل بها، وما نزل بغيرهما فهو ليس مكياً ولا مدنياً، لأن التعريف الأول يفصل بين مرحلتين للدعوة كانت لكل منهما خصائصها المكانية والزمانية، والاجتماعية، وتبعاً لذلك كان لها خطاب ديني متميز.

وهناك تصنيف ثالث يقوم على أساس أن ما وقع خطاباً لأهل مكة كان مكياً وما وقع خطاباً لأهل المدينة كان مدنياً[٢٠]، ويقوم هذا التصنيف على أساس المخاطَب بالوحي، والذي يشكل أحد مقومات الخطاب الأساسية، وبالتالي فإن الخطاب يتشكل وربما يتغير في أساليبه وحتى مدلولاته تبعاً للبيئة الاجتماعية التي يتعامل معها.

وبشكل عام فإن ما نزل من القرآن بالمدينة بحدود سبع وعشرين سورة بحسب رواية ابن سعد في الطبقات عن الواقدي بسنده عن ابن عباس، قال: سألت أبي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة؟. فقال: نزل بها سبع وعشرون- وقيل تسع وعشرون -سورة، وسائرها بمكة[٢١].

إن لدراسة المكي والمدني من الآيات وما يترتب على ذلك من موضوعات آثار مهمة على مستوى معرفة تاريخ التشريع، من حيث سنّ القوانين والاحكام وتدرّجها، ولذلك أثر كبير في التفسير من حيث فهم الآيات على أساس زمان النزول، كما إن لذلك أهمية بالغة في

(٢٠) الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: ابي الفضل الدمياطي، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص١٢٣.

(٢١) انظر للمزيد: السيوطي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٥ -٢٧.

فهم حكمة التشريع وسنّة التدريج في التكليف، بالانتقال من الأصول الى الفروع ومن الأحكام الميسرة الى الاكثر كلفة، وهو أمر ترتب عليه معرفة السياسة العامة في التعامل مع الفرد والجماعة، مما له مسيس علاقة ببحثنا.

ومن أثار دراسة المكي والمدني أيضاً معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وآله في مكة والمدينة ومنهجه في التعامل مع اصناف الناس من المؤمنين وغيرهم من الكافرين والمنافقين ومواقفه من الإحداث المختلفة مما جاء ذكرها في القرآن الكريم، وهو المنهج الرائد والأسوة الحسنة للمسلمين في العمل الاجتماعي والديني على مرّ الأزمان.

والأمر الآخر، من محاور بحثنا هو يتعلّق بما يسمى بيئة النص، أو بيئة الخطاب والتي تدخل في تشكيلها عوامل الزمان والمكان والثقافة وما يعتبر من مكونات الحضارة التي يحيا فيها الخطاب، إذ تتغير الأسئلة التي يثيرها الخطاب والاجابة عنها بتغير البيئة الاجتماعية[٢٢].

فالخطاب جاء متفاعلاً مع مخاطَب يعيش في بيئة معينة وله حاجاته واشكالياته وتطلعاته، ومهما كان الخطاب علوياً ومتسامياً إلاّ انّه نزل الى الارض ليأخذ بيد الانسان نحو أهدافه، فكان لابد أن يقارب واقعه ويخاطبه بالأدوات المعرفية التي يتفاعل معه، لتحرك عقله وتثير عواطفه نحو الحق والخير ومكارم الأخلاق.

لذلك فأننا نستطيع من خلال معرفة بيئة الخطاب معرفة تناسب الافكار والتشريعات التي جاء بها الوحي الكريم من زاوية نظر اجتماعية، لتستوعب بذلك مناسبة بعض التشريعات للواقع الاجتماعي في مكة أو المدينة أو كلاهما، وكيف أن بعض الاحكام، كأحكام الرّق مثلاً، جاءت لمعالجة واقع قائم لا يمكن إلغاؤه مرة وجملة واحدة لأنه سيصطدم بجدار التكوين الاجتماعي والبناء الاقتصادي الحاكم آنذاك، فجاءت الاحكام متدرجة ومتوافقة مع الواقع،

(٢٢) انظر مقدمة أ. د. طه جابر العلواني لكتاب: النص القرآني من الجملة الى العالم، د. وليد منير، ط المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، (١٤١٨-١٩٩٧) ص٧ فما بعدها.

ولكنها تنحو نحو معالجة جذوره وآثاره، وفعلا نجحت ولو بعد حين في ازاحة ظاهرة الرق من الواقع الاسلامي.

وما يهمنا في هذا البحث هو التغير في لغة الخطاب ومناسبته للبيئة الاجتماعية والذهنية العامة للمخاطبين بالقرآن، وبالتالي معرفة أبعاد هذا التغيير وإمكانية استعارته في خطاب المجتمعات المعاصرة تبعاً لثقافاتها وأوضاعها الاجتماعية ومستواها المعرفي والجدل الفكري الذي تعيشه.

والملاحظ في الآيات المكية يجدها أنها تختلف في لغة الخطاب وأدواته المعرفية عن الآيات المدنية، تبعاً للاختلاف بين بيئة مكة الثقافية والاجتماعية البسيطة وبيئة المدينة المعقدة والمتطورة نسبياً.

وكان من المفيد هنا أن نطلع إجمالاً على أحوال مكة والمدينة قبل الاسلام والاوضاع الفكرية والاجتماعية فيها، خصوصاً العقائد السائدة وماله من أثر في اختلاف الخطاب الموجه لكل منها.

مكة:

بلد في وادٍ غير ذي زرع، تشرف عليها جبال جرد فتزيد في قسوة مناخها، ليس بها ماء غير ماء زمزم، وهي بئر محفورة وآبار أخرى حفرها أصحاب البيوت، من غير ماء جارية ولا عيون غزيرة، لذلك لم تصلح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيل وأعناب وزرع وحب، فاضطر سكانها إلى شراء ما يحتاجون إليه من الأطراف والخارج وأن يكتفوا في حياتهم بالعيش مما يكسبونه من الحجاج وأن يضيفوا إلى ذلك تجارة تسعفهم وتغنيهم وتضمن لها معاشهم وأماناً وسلماً يحفظ لهم حياتهم، فلا يطمع فيهم طامع ولا يُنَّغص عيشهم مُنَّغص: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٦].

وكان لموقعها الجغرافي دور في بقاء مكة وأهلها في عقدة تجتمع فيها القوافل التي ترد من المناطق العربية الجنوبية، إلى بلاد الشام وبالعكس، فكانت تستريح بمكة وتتزود فيها،... وهذا بدوره جعل أهل مكة يزاولون التجارة ويسيرون

القوافل باتجاه اليمن والشام، وكان لوجود البيت الحرام فضل كبير على مكة، إذ بفضله قصده الناس للحج إليه من بلاد مختلفة إلى يومنا الحاضر(٢٣).

عند ظهور الاسلام، كانت قريش هي القبيلة التي تحكم مكة، وهي من القبائل العدنانية وقد اشتهرت بالتجارة، والسفر طلباً لها، وانعكس ذلك على طبيعة الحياة بمكة، لأن يميل أهلها الى العيش مسالمين حتى يأمن الحجاج والوافدون إليها.

وكانت قريش من أفصح العرب لساناً وقد شهد لهم العرب بفصاحة اللسان حتى أن الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم، وقد ذكر الثعالبي أن قريشاً صاروا: أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بياناً، لاختلاطهم بغيرهم ولاختلاطهم بكثير من القبائل فأخذوا عن كل قوم شيئاً، ثم انهم كانوا تجاراً، ولأن التجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتنقيق والتدقيق، وكانوا متشددين في دينهم حمساً، (فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال) الى غير ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة، وقد أشير ايضاً بصحة أجسامهم وبجمالهم حتى ضرب المثل بجمالهم فقيل: (جمال قريش)(٢٤).

وقد ذكرت لأهل مكة خصال حسنة تتناسب مع ما حضوا به من مكانة تجارية، منها دفع الإساءة بالحسنة والشرِّ بالصبر والحلم و الكلام السيئ البذيء بالكلام الحسن المقنع المخجل، فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية وجاءت نجدتهم في نصرة الغريب والذبّ عن المظلوم والدفاع عن المستجير بهم(٢٥)... إلا إن كل ذلك لم يمنع من سيطرة التعصب والكبر على أغلب زعمائهم وقد يستثنى من ذلك بنو هاشم، حتى وصفهم القرآن بالجاهلية.

قال تعالى ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

(٢٣) علي، د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ط١، آوندانش للطباعة، ج٤، ص٥.

(٢٤) علي، د. جواد، المصدر السابق، ج٤، ص١٦ -١٧.

(٢٥) المصدر السابق: ص ١٦.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الفتح: ٢٦].

وقد تسمى حالة الكبر والفخر بالعُبيــة، وعبيــة الجاهلية: نخوتها، وفي الحديث ((إن الله وضع عنكم عُبيّة الجاهلية وتعظمها بآبائها)) يعني الكبر(٢٦). وهذه هي التي جعلتهم يعاندون ويرفضون دعوة الرسول الكريمﷺ ويصرون على عقائدهم الموروثة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧٠].

ومن عاداتهم السيئة قبل الإسلام، إهانتهم للمرأة واستحقارهم لها حتى أن منهم من كان يقتل الأنثى بعد ولادتها، قال تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٨-٥٩].

وفي القرآن آيات مباركات أشارت الى أوضاع مكة المعيشية وحالة الأمن التي يعيشونها والنعم التي أنعم الله بها عليهم مع التأكيد على مركزية البيت باعتباره النواة التي تشكلت مكة حوله ونمت وتباركت به.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [سورة قريش: ١-٤].

والإشارة الى أن أول بيت بني لله تعالى كان بمكة وفي ذلك دلالات رمزية ومعنوية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة ال عمران: ٩٦].

وقد نقل أنه كان من عهد آدم إلاّ أُنه خرب بطوفان نوح ومن ثم أعاد بناءه إبراهيم عليه السلام بعد هجرته اليها واستقرار

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

ولـده إسـماعيـل بـه ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٧].

وهما اللذان شرّعا المناسك والمشاعر من الطواف والسعي فيها.

إلا أن ذلك كله لم يمنع ظهور الشرك فيها وانتشار الوثنية وعبادة الأصنام(٢٧).

يثرب (المدينة):

كان ليثرب مكانة مهمة عند ظهور الإسـلام، وفيها وفي أطرافها سكنت جاليات من اليهود، وهي من المواضع التي يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد، وقد قدم إليها الأوس والخزرج، ويذكر المؤرخون أن أصولهم ترجع إلى أزد قحطان من اليمن، وسرعان ما تقاسموا مع اليهود المدينة، الأوس في شعاب والخزرج في شعاب واليهود في شعاب.

وعرفت في الأخبار التاريخية القديمة قبل الإسـلام بيثربة تارة كما في جغرافيا بطليموس، وتارة أخرى بـ (المدينة) ويدل ذلك على أنها كانت معروفة بصفتها المدنية.

وجو يثرب المدينة على العموم خير من جو مكة فهو ألطف وأفرح ولم يعان أهلها ما عاناه أهل مكة من قحط في الماء ومن شدة في الحصول عليه، فالماء متوفر بعض الشيء فيها وهو غير بعيد عن سطح الأرض ومن السهولة الحصول عليه بحفر آبار في البيوت، مع كثرتها في البساتين، ولهذا صار في امكان أهلها زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق والتفسح فيها والخروج إلى أطراف المدينة للنزهة، فأثر ذلك في طباع أهلها فجعلهم ألين عريكة وأشرح صدراً من أهل البيت الحرام(٢٨).

ورغم أن الأوس والخزرج أولاد عم، فالخزرج، وهو جدّ الخـزرج، هو شقيق أوس، فبينهم صلة رحم قريبة، إلاّ أنه وقعت حروب متعددة بين الطرفين، هلك فيها خلق كثير، وأكثر أسبابها ترجع الى العصبية القبلية، والأخذ بالثأر، ولأسباب تافهة.

(٢٧) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق ابراهيم شمس الدين، ط١، مؤسسة الإعـلامي، بـيروت، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٤٩٢.

(٢٨) علي، د. جواد، المصدر السابق، ص ٩٩.

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن الأوس والخزرج لم يكونوا كأهل مكة من حيث الميل إلى الهدوء والاستقرار، بل كانوا أميل إلى حياة البداوة القائمة على الخصومة والتقاتل، وقد بقي الحيّان يتخاصمان حتى جاء الرسولﷺ إليهما، فأمرهما بالكف عنه ووجههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي كانت بينهما.

وكان أهل يثرب تجاراً يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها، وكذلك كان يهودها يتاجرون أيضاً(٢٩).

ولعلّ الكثير من الخصومات، كانت ترجع الى محاولة السيطرة على السلطة وبسط النفوذ، إضافة إلى استعارة روح العصبية المتوارثة فيهم رغم تحضرهم واستقرارهم، وقد كان المجتمع المدني قبل الاسلام، أكثر تطوراً وتنوعاً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، من حيث تعدد مصادر الدخل، كالزراعة والتجارة، ومن حيث تنوع البيئة الاجتماعية، لوجود قبائل الأوس والخزرج واليهود، فهي بيئة متعددة الأعراق والأديان.

ولعل السبب في أن أهل المدينة كانوا أكثر حضرية من أهل مكة، يرجع إلى أصولهم اليمنية: إذ إن: "مجتمع اليمن... نجد فيه صفات المجتمع الحضري أكثر مما نراه في أي مجتمع حضري آخر في جزيرة العرب، مجتمع يختلف حتى (عربه) الى بدوه، وهم الطبقة الثابتة من هذا المجتمع عن أعراب بقية جزيرة العرب"(٣٠).

وعلى أي حال فقد بادر أهل يثرب لمساعدة الرسولﷺ ومناصرته للمهاجرين، حتى عُرفوا بـ (الأنصار) في الاسلام، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية، حتى غلبت عليهم وصارت في منزلة النسب.

وسنجد لاختلاف السلوك المدني عن المكي واختلاف البيئة بينهما آثاره في الخطاب القرآني، وتميز المكي منه عن المدني، كما سيأتي..

أديان العرب وعقائدهم قبل الإسلام:

كانت مكة موئل البيت العتيق، وهو رمز التوحيد الذي وصفه رب العزة

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٠٤ –١٠٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٢١٠.

بقوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة ال عمران: ٩٦]، وكانت بذلك محط ومقصد الموحدين والعابدين، من لدن آدمِ وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، إلى يومنا الحاضر.

وكان العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله وآمن بالتوحيد، وكان منهم من آمن بالله وتعبد الأصنام، إذ زعموا أنها تقربهم اليه، وكان منهم من تعبد للأصنام معتقدين أنها تنفع وتضر، وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية، ومنهم من دان بالمجوسية، ومنهم من توقف ولم يعتقد بشيء، ومنهم من تزندق، وكان منهم أيضاً من آمن بتحكم الالهة في الانسان في هذه الحياة وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب، فلا يؤمنون بالقيامة ويوم الدين.

والأصل في العرب، كما يذهب الى ذلك أهل الأخبار، أنهم كانوا على دين واحد، هو دين إبراهيم، دين الحقيقة والتوحيد، إلاّ انهم ضلّوا وانحرفوا وغووا بعبادة الأصنام[٣١].

فظهر الشرك في جزيرة العرب، بل غلب عليها ونصبت الأصنام في بيت الله وقصدت وعبدت، وقد ذكر أن أول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي بن غالوثة بن عامر، لما سار قومه الى مكة واستولى على أمر البيت، ثم صار الى مدينة البلقاء بالشام فرأى هناك قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننتصر ونستسقي بها فنسقى ونستشفي بها فنشفى، فأعجبه ذلك وطلب منهم صنماً من أصنامهم فدفعوا إليه "هبل" فسار به الى مكة ووضعه في الكعبة، وكان معه أساف ونائلة على شكل زوجين فدعا الناس الى تعظيمها والتقرب اليها والتوسل الى الله تعالى، وكان ذلك في أول ملك شابور ذي الأكتاف الى أن ظهر الله تعالى الإسلام فأخرجت وأبطلت[٣٢].

وكانت قبل الاسلام قد كثرت

(٣١) علي، د. جواد، المصدر السابق، ج٦ ص٢٨.
(٣٢) الشهرستاني، المصدر السابق، ص٤٩٢.

وانتشرت، فقد روى الأزرقي بسنده عن عبد الله بن مسعود، قال دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطحنها ويقول جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا، وما يبدئ الباطل وما يعيد(٣٣).

وقد صنف الشهرستاني العرب من حيث أوضاعهم وعقائدهم إلى أصناف شتى فمنهم معطلة، ومنهم محصلة نوع تحصيل.

وذكر من الأصناف معطلة العرب وأراد بهم غير المتعلمين وغير المثقفين مَن أنكروا الخالق والبعث والإعادة ومالوا بالطابع المحيي والدهر المفني، وهم الذين أخبر القران المجيد عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[سورة الجاثية: ٢٤].

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث والإعادة، وهم الذين أخبر عنهم القرآن: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [سورة يس: ٧٨].

وصنف منهم أقرّ بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وتعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقرّبوا القرابين وتقرّبوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلّوا وحرّموا، وهم الدهماء -عامة الناس وسوادهم -من العرب، إلا شرذمة منهم، وهم الذين أخبر عنهم التنزيل: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٧] إلى قوله: ﴿... إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾[سورة الفرقان: ٨].

وكانت شبهات العرب تتركز على شبهتين، أحدهما: إنكار البعث، بعث الأجسام، والثانية: إنكار البعث، بعث الرسل.

ومن العرب مَنْ كان يميل إلى

(٣٣) الازرقي محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: د. علي عمر، ط١، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م، الجزء الأول، ص٩١.

اليهودية، ومنهم مَنْ كان يميل إلى النصرانية، ومنهم من كان يصبوا إلى الصابئة.. ومنهم من كان يصبوا إلى الملائكة فيعبدوهم، بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٣٤].

أما المحصّلة، وأراد بهم الشهرستاني، المثقفين والمتعلمين منهم، وكانوا أصحاب علوم، وذكر ثلاثة أنواع منها، هي علم الأنساب والتواريخ والأديان، يرونه نوعاً شريفاً، خصوصاً معرفة أنساب أجداد النبي ﷺ... والثاني: علم الرؤيا والثالث علم الأنواء..

وقد كان في العرب –المحصلة -: من يؤمن بالله واليوم الأخر وينتظر النبوة، وكانت لهم سنن وشرائع...

ومنهم مَنْ كان يعرف النور الظاهر والنسب الطاهر وحقيقة الدين الحنيفي وينتظر المقدم النبوي: كَزَيد بن عمرو بن نفيل، كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: أيها الناس هلموا إليَّ فإنه لم يبقى على دين إبراهيم أحد غيري، وسمع أمية بن أبي الصلت يوماً ينشد:

كل دين يوم القيامة عند الله

إلّا دين الحنيفية زورٌ

فقال له: صدقت...[٣٥].

وكان سيد بني هاشم، عبد المطلب، جدّ النبي ﷺ متميزاً بالنور الذي يحمله في صلبه –نور النبي –والبركة التي خُصَّ بها ذلك، حتى دفع الله به شرَّ أبرهة: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [سورة الفيل: ٣].

وألهمه النذر الذي نذر في ذبح العاشر من أولاده، وبه افتخر النبي ﷺ حين قال: انا ابن الذبيحين، وأراد بالذبح الأول: اسماعيل عليه السلام، والثاني: عبد الله بن عبد المطلب.

وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيات الأمور... وكان يقول في وصاياه: "انه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة" إلى أن هلك رجل ظلوم حتف

(٣٤) الشهرستاني، المصدر السابق، ص٤٩٥-٤٩٧.

(٣٥) الشهرستاني، المصدر نفسه، ص٥٠١.

أنفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك، ففكر وقال "والله إنّ وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته".

وأورد الشهرستاني أدلة على إثبات عبد المطلب للمبدأ والمعاد ومعرفته بحال الرسالة وشرف النبوة(٣٦).

وكان عبد المطلب مفزع قريش في النوائب وملجأهم في الأمور ومن حلماء قريش وحكمائها، وممن حرم الخمر على نفسه، وهو أول من تحنث بغار حراء، والتحنث والتعبد في الليالي ذات العدد، وكان اذا دخل شهر رمضان، صعده وأطعم المساكين، وكان صعوده للتخلي من الناس ليتفكّر في جلالة الله وعظمته.

وروي: أنه وضع سنناً جاء القران بأكثرها وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان...

ويذكرون إن قريشاً كانت إذا ما أصابها قحط شديد تأخذ بيد عبد المطلب، فتخرج به إلى جبل ثبير، تستسقي المطر(٣٧).

ولكن العرب رغم وجود بعض الأحناف وبعض أصحاب الديانات السماوية، إلّا أن الوضع الديني، كان يغلب عليه المشركون وعبدة الأوثان، حتى بعث الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ لينهي عهد الجاهلية ويبدأ عهد الإسلام، وليجتمع الناس على عبادة الله الواحد دون سواه.

وإنما فصلنا القول في أوضاع العرب واعتقاداتهم قبل الإسلام ليعلم منه الحال الذي كانوا عليه أوان نزول الوحي الشريف، وحالات الانحراف العقائدية والاجتماعية التي قاربها وعالجها الخطاب القرآني، فهو لم ينزل إلى فراغ ولم يكن خطابه عاماً مجملاً، بل نزل من عند الحق تعالى مفصّلاً ومبيّناً، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم سبل الرشاد.

(٣٦) الشهرستاني، المصدر السابق، ص٤٩٩.

(٣٧) علي، د. جواد، المصدر السابق، ٤٩٠، ص٥٧، نقلاً عن السيرة الحلبية، ج١، ص٢٤ وما بعدها.

اختلاف الخطاب القرآني بين المكي والمدني:

اختلف الخطاب القرآني المكي عن المدني في الشكل والمضمون، سواءً من ناحية لغة الخطاب وأدبياته وأساليب بيانه وأشكال الجدل والحوار أو من جانب الموضوعات التي ركز عليها كل منهما والحقول الفردية والاجتماعيــة التي تم تناولها.

ولم يكن الاختلاف بين الآيات التي نزلت بمكة عن اخواتها النازلات بالمدينة اختلافاً مبدئياً وأصولياً، فهي نزلت من معين واحد، والقرآن الكريم يتحدث عن نفسه من دون تفريق بين ذي وتلك، وإنما الكلام في اختلاف المخاطَب والموضوع الذي يترتب عليه تغير أساليب الخطاب وتنوعه، رغم أن المرسِل والمخاطب نفسه، والرسالة نفسهـــا، يقول تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[سورة هود: ١].

كانت مكة، كما أسلفنا، تعيش الشرك والانحراف عن جادة التوحيد، وكان الرسولﷺ وقد نزل عليه الوحي يعيش الغربة عن عالم الجاهلية البعيد بأخلاقه وعاداته عن خلق الرسالة ومنهجها السامي، لذا انطلق ينطق بالوحي الكريم داعياً الى الله ومبلغاً لرسالاته، صادحاً وصادعاً بآياته المشركين وطغاة قريش، ليزلزل الفكر البالي الموروث ويحرك الأجواء نحو الايمان بالله تعالى ونفي الشرك والجبروت...

فهو كان يؤسس لهذا الدين على أنقاض ما يهدم من فكر الجاهلين، وكان لابد له من بيان أسس دعوته وقواعد رسالته، وأن يدعو الى مكارم الأخلاق واحترام كرامة الانسان المهدورة في ذلك العالم المكي الذي تشوه باستعباد الناس وتحقير الفقراء ووأد البنات وغيرها من السلوكيات الذميمة، كان لابد أن يذكرهم بما جرى على الأمم من قبلهم والعبر في قصصهم في نفس الوقت الذي يذكرهم بنعم الله عليهم من العيش الرغيد في البلد الأمين، في وقت افتقد الناس من حولهم الى الأمن والامان، ومن ثم أن يثبت الصبر والصمود في الفئة القليلة التي آمنت برسالته وحملت

مشعل دعوته والتي جوبهت بأقسى أنواع الاضطهاد على يد طغاة قريش وزبانيتها: إنها مرحلة التأسيس والتشييد لمعالم الدين الجديد والصمود بوجه أعاصير النكران وقوى الاستكبار التي واجهها.

ومن هنا كان ما ميزّ الآيات النازلة على النبي ﷺ في مكة كونها: اكدت على الاحكام الكلية والقواعد الاصلية في الدين غالباً، من الإيمان بالله تعالى ورسوله واليوم الآخر، وما يتبع ذلك من الاصول العامة، كالصلاة وانفاق المال والنهي عن كل كفر أو تابع للكفر، كمظاهر الشرك والعبادة الزائفة او ما حرّموه على أنفسهم أو أوجبوه من غير أصل مما يخدم أصل عبادة غير الله.

ومن ثم جاء في الآيات المكية الأمر بمكارم الاخلاق كلها، كالعدل، والاحسان، والوفاء بالعهد، وأخذ العفو، والأعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي احسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر، ونحوها، والتنحي عن مساوئ الأخلاق من الفحشاء والمنكر، والبغي، والقول بغير علم، والتطفيف بالمكيال والميزان، والفساد في الارض، والزنى، والقتل، والوأد، وغير ذلك مما كان شائعاً في دين الجاهلية.

فكانت الأصول الكلية في النزول والتشريع هي السائدة في الآيات المكية، فيما كانت الآيات المشرعات والمبيّنة للتفاصيل والجزئيات قليلة.

أما في المدينة فقد دخلت الدعوة النبوية مرحلة جديدة، كثر فيها الانصار الذين آووا المهاجرين ونصروا الدعوة ليشكلوا معاً مجتمعاً اسلامياً فتياً اجتمعت عناصر القوة والمنعة فيه، فنزلت التشريعات تترى لتثبت أركان هذا المجتمع الاسلامي الوليد والجديد، وما يتطلبه من أحكام تفصيلية تخص بناءه الذاتي والداخلي، فالمؤمنون آمنوا وقد آن لهم أن يتعلموا علوم الشريعة ويتقدموا بمزيد من الالتزام بالعبادات الفردية والاجتماعية.

ومن جهة أخرى فان تحديات مجتمع المسلمين في المدينة توسعت باتجاه عدّة جهات داخلية وخارجية شكل المنافقون ممن أظهروا الإيمان وضمروا الكفر

وهجمات المشركين في مكة ومؤامرات اليهود في المدينة وحولها لـزرع الفتنة فيها.. جهات معادية متعددة، فكان لابد من مواجهتها بالدفاع عن النفس وجهاد الأعـداء الـذي أسست وشرعـت آيات القرآن المدنية له.

وهكـذا عندما خـرج الـرسـول الى المدينة واتسعت خطة الاسلام كملت هناك الأصـول على تدريج دون اغفال ما نـزل بمكة من أصـول والتذكير بها والتأكيد عليها كإصلاح ذات البين، والـوفـاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحـديـد الحــدود الـتي تحـفـظ الأمـور الضرورية وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص، وما أشبه ذلك، مما نزل تكميلاً للأصول الكلية، وبما يقويها ويحكمها ويحصنها[٣٨]، وهذا المجمل العام سنفصله فيما يلي من بيانات وملاحظات:

١. غالب الخطاب المكي يتوجه الى عامة الناس، إذ إن أهل مكة كان أكثرهم غير مؤمنين، والمؤمنون قلة، لذا كان الخطاب المكي يردد: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) أو (يَا بَنِي آدَمَ)، أما الخطاب المدني، وبعد أن كثر المؤمنون في المدينة المنورة وكونوا مجتمعاً ثم دولة لهم، فإن غالب الخطاب المـدني يتوجه لهم: (يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا).

ولا يعني ذلك عدم ورود (يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ) في المدني و (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) في المكي، وإنما هو في الأكثر وليس بعام، فقد أتفق على أن سورة النساء مدنية وأولها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وعلى أن سورة الحج مكية وفيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سـورة الحـج: ٧٧].

ولما لم يكن في مكة من أهل الكتاب، وانما كانوا بالمدينة، فإن السور التي وقع فيها الخطاب لأهل الكتاب نزلت بالمدينة، دون مكة.

٢. ونـزل بمكة ذكـر الأمـم والـقـرون- لـدراسـة أخبـارهـم والاعـتـبـار بها،

(٣٨) الشاطبي، ابو اسحـــاق، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، ط المكتبة العصرية، بـيروت، (١٤٢٥هـــ -٢٠٠٤م)، ج٣، ص٦٨ -٦٩.

وفيها أخبار الأنبياء وقصص مللهم وما جرى على الطغاة، والجبابرة، والكافرين من الهلاك والعذاب، وبيان سنن الله تعالى في خلقه، والمكذبين ونجاة المؤمنين، إذ إن الغالب على أهل مكة هو الشرك وعبادة الاصنام ونكران البعث والنشور والطغيان، فكان لابد من دعوتهم الى توحيد الله ونفي الشرك عنه وتذكيرهم بما حلّ بالأمم السابقة لطغيانهم من العذاب، حتى يستكينوا ويستجيبوا لنداء الله واتباع رسوله..

أمـــا في المدينة فإن من الطبيعي أن الأمر بالتكاليف الشرعية، الفردية والاجتماعية، يأتي بعد رسوخ الايمان وعقد الفرد والجماعة، على الالتزام بالفروض المترتبة على الاسلام، لذا نزلت أكثر أحكام الفرائض والسنن بالمدينة.

وقد سنت في المدينة أغلب التشريعات -عدا الصلاة -مثل الصوم وفريضة الحج وتحريم الخمر وتحريم الربا أو التشريعات الاجتماعية كأحكام الجهاد، وكذلك كان في السور المدينة ذكر الحدود والفرائض، ويراد بها أحكام الميراث[٣٩].

٣. ولما كان المجتمع المدني، مجتمعاً اسلامياً في ظاهره وغالبه، فقد ظهرت في المدينة ظاهرة المنافقين وهم الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر، وكان لهم دور خبيث وخطير، أثروا سلبياً على كثير من الحوادث، لذا تعرض القرآن لهم في سورة (المنافقون) وفي سورة التوبة بآيات مفصلة تفضح المنافقين وتتبرأ منهم، وفي سور مدنية أخرى متفرقة، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة التوبة: ١٠١].

قال مكي: كل سورة فيها ذكر

(٣٩) اسماعيل، أد. محمد بكر، الموسوعة القرآنية المتخصصة، ط١ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م، ص ٥٩٠.

المنافقين فمدنية[٤٠].

٤. ولم يقتصر الاختلاف -كما سبق- في المضمون ومحتوى الخطاب وكذلك المخاطبين به: كفاراً أو مشركين، أو أهل كتاب، أو مؤمنين، وإنما سرى الاختلاف إلى شكل الخطاب وأدواته اللغوية، فقد نقل السيوطي عن العريني رحمه الله:

"وما نزلت كلاّ بيثرب فاعلمن ولم تأتِ في القرآن في نصفه الأعلى.

وقال: وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة، وأكثرها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم، بخلاف النصف الأول وما نزل منه في اليهود، لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم"[٤١].

والواقع أن نظرة كلية إلى السور القرآنية المكية وإلى الأخرى المدنية تعطينا فروقاً أساسية أخرى في التعبير اللغوي، فالسور المكية يغلب عليها قصر الآيات وصغر السور وكثرة السجع وقوة الأسلوب وشدة الخطاب -بما يناسب حال أهل مكة ولغتهم وما عرفت به قريش من الفصاحة وحسن البيان، فكان يناسبهم الإيجاز دون الإسهاب والإطناب.

أما السور المدنية، فيغلب عليها لين الأسلوب وسهولة الخطاب وطول الآيات وعمق الجدل وسعة الاحتجاج، وهي لغة المجتمعات المدنية التي تميل إلى البساطة في الأسلوب والتفصيل في الموضوعات، بما يتناسب مع وضعها المعرفي، فكان يناسبهم الشرح والايضاح، وذلك يتتبع كثيراً من البسط والإسهاب.. لأن "دستور البلاغة لا يقوم الّا على رعاية مقتضيات الأحوال"[٤٢].

وقد تحدث الجاحظ في رسائله عن أثر المحيط في تكوين اللغة، كالاختلاف بين المكي والمدني وغيره[٤٣].

(٤٠) انظر: السيوطي، المصدر السابق، ج١، ص٥٢ -٥٣، وقد نقلنا الاقوال المذكورة عنه.

(٤١) السيوطي، المصدر السابق، ج ١، ص٥٤.

(٤٢) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القران، ط المكتبة العصرية، صيدا -بيروت، ط، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٤م، ص ١٩١.

(٤٣) علي، د. جواد، المصدر السابق، ص٥٢٥.

٥. والفارق الأهم بين المكي والمدني، هو أن الخطاب المكي تغلب عليه الشؤون الفردية، عقيدة وأخلاقاً وسلوكاً، لأنّ المسلمين كانوا قلائل ويعيشون أفراداً ضمن مجتمع جاهلي، أما الخطاب المدني فقد جاء والمسلمون قد تشكلوا كمجتمع، بل دولة، ولهذا المجتمع أعرافه وتقاليده ومفاهيمه ومعاملاته التي ينبغي أن تبنى على أساس الدين الجديد وأحكامه.. كما إنّ لهذه الدولة شؤونها ومناسباتها في الحرب والسلام و المواثيق والعهود مما يتطلبه فقه دولة وأحكام علاقات وقيم سياسية، وجاء القران لِيَنظِّرَ لهذه الأوضاع الجديدة ويرسم لها حدوداً ويعطيها أفقاً جديداً في الأخلاق والقيم قد تلتقي هنا وتختلف هناك مع القيم والمعايير السائدة، وهذه الأحكام الاجتماعية قد تبدو وكأنها متغيّرة ومتحولة تبعاً لتغيّر وتحرك الأوضاع الاجتماعية السائدة فتكون فيها مساحةً مفتوحة لأولى الأمر ليتخذوا القرار المناسب فيها تأسياً لسنة الرسول الكريمﷺ وما جاء في القرآن من مواقف وأحكام.

ولذا نجد في القران آيات مكية تؤكد على عقيدة التوحيد و الايمان بالله تعالى ورسله واليوم الأخر، ومحاجة المشركين وردّ شبهاتهم ودعوتهم إلى الاسلام وإرساء أسس بناء شخصية المسلم من حيث صبره وصموده في وجه تحديات وعقبات المجتمع الجاهلي الذي واجه المؤمنين بأقسى أنواع الأذى الفردي والجماعي، كما أكدت الآيات القرآنية على التزام المسلم الرسالي وسلوكه الأخلاقي الرفيع والتعامل مع الاخرين بالعفو والصفح، وبالتالي إعداد الإنسان المسلم كلبنة أساسية في بناء المجتمع المسلم.

أما في المدينة فانّ المسلمين عاشوا تجربة أخرى ليكونوا من جهة ضمن مجتمع متعدد الأديان ولأتباعها أفكارهم وحججهم ومشكلاتهم وتقاطعاتهم، إضافة الى نقاط اتفاقهم وكلمتهم المشتركة مع المسلمين، فكان لابد من الحوار العقائدي والجدل الفكري مع الاخر ومحاولة الوصول الى كلمة سواء معهم،

والتعايش السلمي ضمن مجتمع متعدد الأديان والأعراق.

وهناك من جهة أخرى الجماعة المسلمة التي انفتحت على الناس فدخل فيها كثيرون، منهم المؤمنون ومنهم المنافقون، وتخوض هذه الجماعة صراع الوجود مع كثرة ما يحاك ضدها من مؤامرات وحروب من قريش وحلفائها ومن يتآمر معهم من مجتمع المدينة، بذلك بحاجة ماسة الى فكر الجهاد للدفاع عن نفسها و الحفاظ على تجربتها الفتية، التي كانت بين حدين البقاء أو الفناء.

من هنا غلب على المكي الفكر الفردي، العقائدي، والأخلاقي، وغلب على المدنية الفكر الاجتماعي والسياسي وفقه الدولة وأحكام الجهاد.

المستشرقون ومسالة المكي والمدني:-

أخذ موضوع المكي والمدني حيزاً كبيراً من الاهتمام لدى المستشرقين الذين درسوا القرآن والسيرة النبوية، وكان جلّ اهتمامهم هو في العلاقة بين النص وتاريخ نزوله والواقع الاجتماعي الذي نزل فيه، والذي قد يسمى ببيئة النص.

وقد لقي هذا البحث اهتماماً كبيراً من لدى المستشرق الألماني نولدكة والذي تحدث بتفصيل عن خصائص المكي والمدني وعلاقتها بتاريخ الدعوة النبوية (٤٤)، ومن ثم تبعه مستشرقون بارزون آخرون اقتفى معظمهم أثره، وزاد بعضهم عليه أو غيرّ، إلا أن نظرياته بقيت هي الأساس الذي بنوا عليه، فكان من أبرز هؤلاء المستشرق فارل بروكلمان، والمستشرق الانكليزي مونتجمري واط، وكانوا سيل، ومن ثم المستشرق البارز كولد زيهير وغيرهم(٤٥).

تقوم نظرية نولدكه على قبول التقسيم المكي والمدني والتمايز بينهما في الأساليب اللغوية والمضامين تبعاً للتغيّر في المحيط وبيئة النزول ولكنه يتميز عمن سبقه ولحقه من الباحثين المسلمين وغيرهم بأمرين:

الأول: تقسيم العهد المكي الى ثلاث

(٤٤) نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ترجمة وتحقيق: جورج تامر، ط١، مؤسسة كونراد، بيروت ٢٠٠٤م، ص٥٣-٢١٠.

(٤٥) انظر: النصراوي، د. عادل عباس، إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين، ط، الرافدين، ٢٠١٦م، ص ١٥٢ وما بعدها.

فترات، تحمل كل منها خصائص متميزة عن غيرها، مع تأكيده على اختلاف اسلوب الخطاب المكي خصوصاً في جانب اللغة ومفردات الخطاب بين فترة وأخرى إذ تميزت الفترة الاولى بقوة الحماس الذي يحرّك النبي و النبرة الخطابية التي تحتفظ بلونها الشعري الكامل، والآيات القصيرة التي تحمل تعاليم بسيطة وهادئة لكنها زاخرة بالقوة وذات تحريك ايقاعي وجرس عفوي جميل...

أما سور الفترة الثانية، فليس لها طابع مشترك فبعضها يشبه سوره الفترة الأولى وبعضها يشبه سور الفترة الثالثة، ولكن يلاحظ عليها الانتقال من الحماس العظيم الى قدر أكبر من السكينة في السور المتأخرة التي يغلب عليها الطابع النثري، مع استشهادات قرآنية بواسطة أمثلة كثيرة مأخوذة من الطبيعة والتاريخ..

أما الفترة الثالثة، فإن اللغة تصبح فيها: مطنبة، واهية (!!)، نثرية، مع تكرار لا نهاية له وترديد للكلمات... مع طول للآيات، واختفاء للقالب الشعري، مع كثرة الخطاب: (يا أيها الناس).

الأمر الثاني: هو محاولة نولدكه اقتراح اعادة ترتيب زمني للسور القرآنية يختلف عن الترتيب المتوارث لدى المسلمين وذلك بالاعتماد على تحليل نصي – تاريخي، وهو ما اعتمده ايضاً في دراسته للسور المكية بفتراتها الثلاث والمدنية[٤٦].

والواقع الذي لابد من تقريره أن نولدكه وبالرغم من الملاحظات على بعض استنتاجاته هنا وهناك، إلاّ أنه كان مبدعاً في التحليل النصي –التاريخي، الذي حاول أن يحلل ويقارب النص، من خلال الوقائع والأحداث التي رافقت ظهوره، وبالتالي يدرس التفاعل المتقابل بين النص وبيئته، وهو أمر علمي ومنهج يستحق التوقف عنده بالدراسة والتأمل والفحص والتدقيق، وينبغي أن لا تتأثر دراستنا تلك بما قد يفهم من نولدكه وغيره على بشرية الوحي[٤٧]، فتلك مسألة أخرى، لا يمكن أن نتوقع خلافها

(٤٦) انظر: نولدكه، المصدر السابق، ص ٦١-٢١٠.

(٤٧) انظر ما اخذ به على نولدكه وغيره هذا المأخذ: النصراوي، المصدر السابق، ص١٥٧.

من باحث غير مسلم، فلنا أن ندرس منهجه وإبداعاته العلمية، وله عقيدته وأفكاره التي لا تناسب أفكارنا.

نعم، يؤخذ على المستشرقين قولهم بتغير شخص النبي ﷺ في المدينة عما كان عليه في مكة، وبالتالي التغيّر في النص القرآني، المكي عن المدني، في الجوهر والمبادئ التي تحكمه، كما ذهب الى ذلك جولد تسسيهر والذي يرى أن خطاب الرسول ﷺ قد تغير بعد هجرته الى المدينة، فيرى أنه في الوقت الذي كان محمد وقرآنه في مكة يدعو الى التقوى والزهد والتذكير بالدار الآخرة فإنه في المدينة حمل طابع الوطن الجديد ليكون مجاهداً وغازياً ورجل دولة ومنظم جماعة جديدة... ويرى أن العصر المدني أدخل تعديلات جوهرية في الفكرة التي كونها محمد عن طابعه الخاص إذ كان في مكة نبياً يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة ويقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال... أما في المدينة فقد تغيرت مقاصده وظروفه الخارجية واتجهت اتجاهاً آخر بحكم الظروف الخارجية..[48].

ويستمر جولد تسيهر في التأكيد على أن صورة النبي وسيرته قد تحولت بعد هجرته من مكة مستشهداً بآيات القرآن التي تدعو الى الاعراض عن المشركين (الحجر: ٤٠) والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة (النمل: ٢٥) الى الآيات المدنية التي تدعو الى قتال المشركين (التوبة: ٥) و (البقرة: ٢٤٤) ليصفه بأنه "نبي القتال والحرب"..

أما السير أرنولد، فأنه ينقل عن الكتّاب الاوربيين تأكيدهم أن النبي سلك مسلكاً جديداً عَام الهجرة منذ هجرته الى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، فلم يعد البشير النذير المرسل الى الناس الذين كانوا قد أقنعهم بالحق بصدق الدين الذي أوحى اليه، وانما ظهر الان أقرب الى أن يكون متعصباً مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة

(٤٨) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، ترجمة: د. محمد يوسف موسى وأخرون، ط، دار الكتب الحديثة بمصر، ص١٦-١٧.

سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه(٤٩).

هذه الصورة المتغيرة عن النبي ﷺ في المدينة عن مكة، وتبعاً لذلك تغيّر لهجة الآيات القرآنية من الصفح والسلم الى الحرب والقتال تكاد تجدها عند الكثير من المستشرقين الذين لم يتعرضوا -بقصد أو بغير قصد-إلى تأثير تغيّر ظروف وأحوال الدعوة المحمدية من الحالة الفردية التي يحملها أفراد قلائل يتعرضون للاضطهاد والأذى دون أن يملكوا فرصة الدفاع عن أنفسهم إلى حالة مجتمع ودولة تتعرض لأقسى أنواع الحرب والهجوم من أعدائها الذين يريدون تناوشها من كل جانب لقتل المسلمين وإبادة مجتمعهم فلا يملكوا إلاّ خيار الدفاع عن النفس والقتال المشروع لصد العدوان: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠].

ولكن ذلك الجهاد والقتال لم يغيّر شيئاً من أخلاقية النبي ﷺ السامية ولا من منهجه في التعامل مع الآخرين، كما لم تختلف آيات القرآن في المدينة في خطها الرسالي عما كانت عليه في مكة، فإن الأمر بالعفو والصفح تكرر في المدينة -كما جاء في مكة -فنقرأ في السور المدنية: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩].

وقوله عن اليهود: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة: ١٣].. وقد وردت مفردة "الصفح" ومشتقاتها ثمانية مرات في القرآن كانت منها أربعة في السور المكية وأربعة في السور المدنية، أما مفردة "العفو" ومشتقاتها فقد وردت في القرآن خمساً وثلاثين مرة، وقد تكررت ثلاثون منها في السور المدنية.

أما منهج النبي الكريم فهو نفسه،

(٤٩) الدعوة الى الاسلام، ص ٥٣، انظر: النشمي، د. عجيل جاسم، المستشرقون ومصادر التشريع الاسلامي، ط١. المجلس الاعلى للثقافة والفنون والادب، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ٥٥.

أيضاً، ويمكن معرفة ذلك من دراسة سيرته بعد هجرته من مكة، ولعّل من ابرز الشواهد هو نداءه يوم فتح مكة وغلبة المسلمين على مشركيها الذين آذوا المسلمين وأوغلوا في دمائهم وأموالهم، ولكن النبي عفا عنهم وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، وقد رفع نداءه فيهم: (اليوم يوم المرحمة)(٥٠) من دون أي روح للثأر أو الانتقام، فكانت أخلاق الرسالة ذاتها فرداً وجماعة، وإن اختلفت ظواهر المواقف باختلاف الساحات والميادين ومتطلباتها: سلماً وحرباً، مما تفرضه الأحداث على أية جماعة تتعرض للإبادة وأية دولة تتعرض لمخاطر الأعداء.

تعلق الآيات بوقائع لا يعني محدودية المعاني:

بقي أمر وهو أن تعلق آية أو آيات من القرآن الكريم بوقائع أو أشخاص في زمان أو مكان معينين لا يعني بحال محدود محدودية معاني الآيات وتعلقها بالماضي، لأن تلك الوقائع وان كانت تدخل في تفسير معنى هذه الآيات وفهم معانيها فهماً اجتماعياً للنص، ولكن يبقى التأويل وما وراء المعنى، من معانٍ ومفاهيم ذات بعد مطلق ورسالة خالدة تعلو على الزمان والمكان، فإذا قرأنا في القران: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد: ١ -٥].

فإن معرفة أبي لهب وامرأته وسلوكهما العدواني تجاه الرسول والرسالة رغم قرابتهما منه، وما كان يكيدان ويمكران وما يحملان من أحقاد واضغان... كل ذلك يساعد في فهم أجواء النص والمعنى المراد منه ووقائع الحدث، كما يقولون، ولكن ما وراء هذا المعنى والمفهوم الذي يحمله، أي تأويله، يبقى خالداً وعاماً، لأنه ليس المراد هنا ذّم أبي لهب، وهو عم الرسول ﷺ لجانبه الشخصي الفردي، ولكن المراد منه ذمّ سلوك الأشخاص الذين يعادون الحق وأهله، وذهاب جهودهم سدىً، وأن ما يملكون من

(٥٠) البخاري، محمد بن سماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، ط دار ابن كثر، ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣، ص ٥٩٧.

عناصر القوة، مالاً وجاهاً وقرابة وغيرها، سوف لن تنفعهم ولا تنقذهم من عذاب الله وسوء العواقب بل: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [سورة الانفال: ٣٠].

وهذا سارٍ في سائر آيات القرآن والتي تجري في من لم تنزل عليهم، كمن نزلت عليهم، كما تجرى الأمثال والحكم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٢٧].

الخاتمة:

نزل القرآن متدرجاً في آياته واحكامه، مراعاة لظروف المجتمعات التي نزل عليها، ولغرض تهيئتها لقبول دعوته وعدم المواجهة الشاملة مع عاداتهم وتقاليدهم، وإنما اكّد على عقيدته الأساسية في الايمان بالله تعالى ورسله واليوم الاخر، ومن ثم تعميق وتوسيع التشريعات بمرور الزمان واتساع رقعة قبوله لدى الأفراد والمجتمع، فلم يكن متسرعاً ولا شمولياً منذ بدء دعوته، بل كان حركياً وواقعياً، يراعي تطور المجتمع ومدى استعداده للتغيير، فلا يتجاوز التكليف حدود الطاقة ومجال الإمكان.

واختلف القرآن في لغة خطابه ومضامين أحاديثه من مجتمع لآخر، لأنه جاء لهداية هذه المجتمعات وعلاج أمراضها الاجتماعية، فلم يكن نداء السماء غريباً ولا بعيداً عن الناس، بل كان يقترب منهم في الاساليب ولغة الخطاب، محاولاً اسعافهم وانقاذهم، من الضلال الى الهدى، ومن الظلمات الى النور.

وهذا التدرج والتنوع في الخطاب القرآني يعطينا مثالاً رائعاً لكيفية التعامل مع الناس ويؤكد على ضرورة التسامي والتسامح في الخطاب والمرونة والواقعية في المقاربة الدينية لأفكارهم ولأوضاعهم، وملاحظة عنصري الزمان والمكان وتغيّرهما، وكذلك التطور الحاصل في الأوضاع الفكرية والاجتماعية، وصولاً الى خطاب ديني مرن ومنفتح ومتسامح ومتعايش مع الانسان المعاصر، وملاحظة تغيّر الظروف واختلاف المجتمعات والذي يتطلب معالجة جديدة وواقعية،

لتبقى مقاصد الشريعة حيّة وشاخصة، أمـــا مجالات التشريع والتطبيق فيؤخذ فيها بنظر الاعتبار المجتمـــع المستهدف بالخطاب كما أخذ التشريع الأول بنظر الاعتبار مجتمع زمانه، سواء كان في مكة أو المدينة أو الجزيرة العربية أو عالم ذلك الزمان، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة ابراهيم: ٤].

الخلاصة:

يتأثر الخطاب بعوامل أساسية أهمها: المخاطِب، والمخاطَب، وبيئة الخطاب، والخطاب القرآني الكريم جاء مقارباً لأوضاع الناس، متوجهاً إليهم ببيانه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولذا كان خطاباً متحركاً ومتغيراً في لغة خطابه وأساليب دعوته، وكانت تلك من سمات القوة والحيوية فيه، رغم ما يحمل من دلالات عظيمة وأفكار متعالية. يتناول البحث مفردتين من مظاهر مراعاة الأوضاع الاجتماعية والفكرية للناس المخاطبين بالقرآن ومخاطبتهم باللغة التي يفهمونها والأساليب التي يأنسوا بها، وكانت تلك المفردتان هما: التدرج في نزول القرآن، وتغيّر الخطاب المكي والمدني، وأُريدَ من ذلك كله الاستفادة من هذه التجربة القرآنية الفريدة في منهجيات الخطاب الديني المعاصر.

أهم المصادر:

القران الكريم.

١. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢. تفسير القران العظيم، ابن كثير الدمشقي، ط دار الاندلس، بيروت.

٣. البرهان في علوم القران، بدر الدين الزركشي، تحقيق: ابي الفضل الدمياطي، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤. الاتقان في علوم القران، السيوطي، ط٣، دار ابن كثير، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٥. الموافقات في أصول الشريعة، ابو

اسحاق الشاطبي، تحقيق: محمد عبد القادر، الفاضلي، ط المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٦. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤٢٧ -٢٠٠٦م.
٧. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، د. جواد علي، ط١، اوند دانش للطباعة.
٨. أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار، محمد بن عبد الله الازرقي، تحقيق: د. علي عمر، ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٩. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط المكتبة العصرية لبنان، ٢٠٠٦.
١٠. المعجم الوسيط، مصطفى ابراهيم وآخرون، ط دار الدعوة.
١١. إشكالية فهم النص القرآني عند المستشرقين، د. عادل عباس النصراوي، ط. الرافدين، ٢٠١٦م.
١٢. الموسوعة القرآنية المتخصصة، أد. محمد بكر إسماعيل، ط١ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
١٣. مناهل العرفان في علوم القران، محمد عبد العظيم الزرقاني، ط المكتبة العصرية، صيدا -بيروت، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
١٤. المستشرقون ومصادر التشريع الاسلامي، د. عجيل جاسم، ط١، المجلس الاعلى للثقافة والفنون والادب، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٥. تاريخ القرآن، ثيودور نولدكه، ترجمة وتحقيق: جورج تامر، ط١، مؤسسة كونراد، بيروت، ٢٠٠٤م.
١٦. العقيدة والشريعة في الاسلام، جولد تسيهر، ترجمة: د. محمد يوسف موسى وآخرون، ط، دار الكتب الحديثة بمصر.